المبحث الخامس

من درجات التدبُّر

من درجات التدبُّر

الدرجة الأولى: التفكُّر والنظر والاعتبار:

قال ـ سبحانه ـ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]. وقال: ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١]. وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

* وهي سمة لأهل العلم، قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: «ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة؛ فالتفكر والتذكر بذار العلم، وسقيه مطارحته، ومذاكرته تلقيحه»[1].

* وهي من أشرف الأعمال لأن الفكرة عمل القلب والعبادة عمل الجوارح، قال أبو سليمان: «الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية، والفكرة في الآخرة تورث الحكمة وتجلي القلبَ».

* التفكر يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه عليه العمل المجرد؛ فإن التفكر يوجب له انكشاف حقائق الأمور، فيفرق بين الوهم وبين الحقيقة. إذا فكر العبد في عواقب الأمور، وتجاوز فكره مباديها، ووضعها مواضعها، وعلم مراتبها؛ فإنه إذا ورد عليه وارد الذنب والشهوة، تجاوز بفكره لذتَه وفرحَ النفسِ به إلى سوء العاقبة، وما يترتب عليه من الألم والحزن الذي لا يقاوم تلك اللذة والفرحة؛ فإنه لا يكاد يُقدم عليها.

* وكذلك إذا ورد على قلبه وارد الراحة والدعة والكسل والتقاعد عن مشقة الطاعات وتعبها، عبر بفكره إلى ما يترتب عليه من اللذات والخيرات، وكلما غاص فكره في ذلك اشتد طلبه لها، وسهل عليه معاناتها، واستقبلها بنشاط

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٢١٧.

وقوة وعزيمة .

* وكذلك إذا فكَّر في منتهىٰ ما يستعبده من المال والجاه والصور ، ونظر إلىٰ غاية ذلك بعين فكره استحىٰ من عقله ونفسه أن يكون عبداً لذلك .

* لا بد لمن تفكر أن تكون نتيجة الفكر : حال تحدث للقلب ، ولا بد لتلك الحال أن توجب له إرادة ، وتلك الإرادة توجب وقوع العمل ، فالفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها ، وهذا يكشف لك فضل التفكر وشرفه ، وأنه من أفضل أعمال القلب وأنفعها له ، حتىٰ قيل : تفكر ساعة خير من عبادة سنة .

* الفكر هو الذي ينقل من موت الفطنة إلىٰ حياة اليقظة ، ومن المكاره إلىٰ المحاب ، ومن الرغبة والحرص إلىٰ الزهد والقناعة ، ومن سجن الدنيا إلىٰ فضاء الآخرة ، ومن ضيق الجهل إلىٰ سعة العلم ورحبه ، ومن مرض الشهوات والإخلاد إلىٰ هذه الدار إلىٰ شفاء الإنابة إلىٰ الله والتجافي عن دار الغرور ، ومن مصيبة العمىٰ والصمم والبكم إلىٰ نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه ، ومن أمراض الشبهات إلىٰ برد اليقين .

* تدبُّر كلام الله يوجب معرفة صفاته وأفعاله ، وتنزيه الرب عما لا يليق به ، ووصفه بما هو أهله من الجلال والإكرام .

* وتدبُّر أيامه وأفعاله في أوليائه وأعدائه التي قصها علىٰ عباده ؛ تورث الإيمان بأنه علىٰ كل شيء قدير ، وأنه شديد العقاب ، وأنه غفور رحيم ، وأنه العزيز الحكيم ، وأنه الفعال لما يريد ، وأنه وسع كل شيء رحمة وعلماً ، وأن أفعاله كلها دائرة بين الحكمة والرحمة والعدل والمصلحة ؛ لا يخرج شيء منها عن ذلك .

* وهذه الثمرات لا سبيل إلىٰ تحصيلها إلا بتدبُّر كلامه ، والنظر في آثار أفعاله ؛ وإلىٰ هذين الأصلين ندب عباده في القرآن ، فقال في الأصل الأول : ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ**﴾ [**النساء** : ٨٢] . وقال في الأصل الثاني : ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ**﴾ [**الروم** : ٤٢] .

* التفكر في القرآن نوعان: تفكر فيه ليقع على مراد الرب - تعالى - منه، وتفكر في معاني ما دعا عباده إلى التفكر فيه. فالأول تفكر في الدليل القرآني، والثاني تفكر في الدليل العياني. فالأول تفكر في آياته المسموعة، والثاني تفكر في آياته المشهودة، ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه، ويعمل به، لا لمجرد التلاوة مع الإعراض عنه(١).

قال الحسن البصري - رحمه الله -: «إن من أفضل العمل: الورع والتفكر»(٢).

الدرجة الثانية: التأثر وخشوع القلب:

وخشوع القلب: هو ذلته وسُكُونه لله(٣)؛ ولذلك تسمو الروح، وتبكي العين، وتتأثر الجوارح، وتذل النفس لخالقها وتخضع لربها، ويورث ذلك خشوع الظاهر. وقد أجمع العارفون على أن محل الخشوع القلب(٤)، يقول القرطبي - رحمه الله تعالى - في تفسير قوله - تعالى -: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**﴾ [الزمر: ٢٣]: «لما كان القرآن في غاية الجزالة والبلاغة اقشعرت الجلود منه إعظاماً له، وتعجباً من حسن ترصيعه، وتهيباً لما فيه»(٥). وقد مدح الله - عز وجل - في كتابه البكائين مخبراً عن الأنبياء، ومن انضاف إليهم من الأولياء: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا**﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]، وأخبر أن البكاء يزيدهم خشوعاً؛ ولذلك قيل: «إن خشوع القلب للقرآن واجب»(٦).

---

(١) النقاط السابقة مقتطفات من مفتاح دار السعادة، لابن القيم - رحمه الله -، ص ٢١٥ - ٢٢٠، وقد ذكر أمثلة على ذلك.
(٢) الزهد، لابن المبارك، ص ٩٦.
(٣) انظر: مدارج السالكين، ١ / ٥٢١.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١ / ٣٧٥، وقال القرطبي: «إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر».
(٥) الجامع لأحكام القرآن، ١٥ / ٢٥٠.
(٦) نقله ابن مفلح عن شيخ الإسلام في الآداب الشرعية، ٢ / ٣٠٤.

من خشوع الرسول ﷺ :

عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : «قال لي النبي ﷺ : اقرأ عليّ . قلت : يا رسول الله ! أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال ﷺ : فإني أحب أن أسمعه من غيري . فقرأت عليه سورة النساء ، حتىٰ بلغت : ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴾ [النساء : ٤١] ، قال لي : أمسك ! . فإذا عيناه تذرفان»[١] .

قال ابن بطال ـ رحمه الله ـ : « إنما بكىٰ ﷺ عند تلاوته لأنه مثل لنفسه أهوال يوم القيامة ، وشدة الحال الداعية له إلىٰ شهادته لأمته بالتصديق ، وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف ، وهو أمر يحق له طول البكاء»[٢] . قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ : «والذي يظهر أنه بكىٰ رحمةً لأمته ؛ لأنه علم أنه لا بد أن يشهد عليهم بعملهم ، وعملهم قد لا يكون مستقيماً فقد يفضي إلىٰ تعذيبهم»[٣] .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ : يا رسول الله ، قد شبت ! قال رسول الله ﷺ : «شيبتني هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت»[٤] . وقيل إن الذي شيب رسول الله ﷺ من سورة هود هو قوله ـ تعالىٰ ـ : ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ** ﴾ [هود : ١١٢][٥] .

---

(١) أخرجه البخاري ، رقم ٤٥٨٢ ؛ ومسلم ، رقم ٨٠٠ ؛ والترمذي ، رقم ٣٠٢٧ ، ٣٠٢٨ ، وفي روايته : (تهملان) ؛ وأبو داود ، رقم ٣٦٦٨ .

(٢ ، ٣) الفتح ، ٩ / ٩٩ .

(٤) رواه الترمذي ، رقم ٣٢٩٧ ، وقال : حديث حسن غريب ؛ وابن أبي شيبة ، ١٠ / ٥٥٣ ، والحاكم ، ٢ / ٤٧٦ ، وقال : علىٰ شرط البخاري . ووافقه الذهبي ، وفي رواية عند ابن سعد ، عن قتادة قال ﷺ : «شيبتني هود وأخواتها» رواها الطبراني ، ١٧ / ٢٦ ؛ وصحح الحديث الألباني في السلسلة الصحيحة ، ٩٥٥ ؛ وفي صحيح الجامع برقم ٣٧٢٠ ، ٣٧٢٣ ، وفيه بلفظ : «شيبتني هود وأخواتها قبل المشيب» ، برقم ٣٧٢١ ، وبلفظ : «شيبتني هود وأخواتها من المفصل» ، برقم ٣٧٢٢ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ، ٩ / ٢ .

ولم يكن بكاؤه ﷺ بشهيق ورفع صوت، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهملان، ويُسمع لصدره أزيز، وكان بكاؤه عند سماعه القرآن بكاء اشتياق ومحبة وإجلال، مصاحب للخوف والخشية(١).

من خشوع السلف:

عن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ قالت: «كان أصحاب النبي الله ﷺ إذا قُرئ عليهم القرآن كما نعتهم الله، تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم»(٢).

وفي قصة حماية ابن الدغنة لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيتقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش»(٣).

وفي حديث آخر: «إن أبا بكر رجل رقيق؛ إذا قرأ القرآن لا يملك دمعه»(٤).

ولما قدم أهل اليمن زمن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وسمعوا القرآن جعلوا يبكون، قال أبو بكر: هكذا كنا(٥).

قال إبراهيم بن الأشعث ـ رحمه الله ـ: «ما رأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذَكر الله أو ذُكر عنده أو سمع القرآن؛ ظهر به من

---

(١) زاد المعاد، ١ / ١٨٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ١٤٩؛ والبغوي، ٧ / ٢٣٨.
(٣) رواه البخاري، رقم ٣٩٠٥؛ والبيهقي في الدلائل: ٢ / ٤٧١؛ وأحمد، ٦ / ٣٤٦؛ وابن سعد في الطبقات، ٨ / ٢٥٠؛ والطبري في تاريخه، ٢ / ٣٧٥، نقلاً عن (صحيح السيرة النبوية) لإبراهيم العلي، ص ٩١
(٤) رواه مسلم، رقم ٤١٨، ونحوه عند الترمذي، رقم ٣٦٧٢.
(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية وفي الكنز، ١ / ٢٢٤، عن حياة الصحابة، ٣ / ١٧٣.

الخوف والحزن، وفاضت عيناه، وبكى حتى يرحمه من يحضره»[١]. وعن عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله ـ قال: «سألت سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ قلت: الرجل إذا قام في الصلاة أي شيء ينوي بقراءته وصلاته؟ قال: ينوي أنه يناجي ربه»[٢].

ولما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ الآيات التي مدح الله فيها عباده حين سماع آياته قال: «وهذا سماع سلف الأمة، وأكابر مشايخها وأئمتها كالصحابة والتابعين ومن بعدهم من المشايخ كإبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، ويوسف بن أسباط، وحذيفة المرعشي، وأمثال هؤلاء. كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول لأبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ: يا أبا موسى! ذكرنا ربنا. فيقرأ وهم يسمعون ويبكون. وكان أصحاب محمد ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ القرآن والباقي يستمعون»[٣].

وكثرة البكاء والخشوع وسرعة التأثر لا تدل على كثرة الذنوب بل على صفاء القلوب.

الطريق إلى تحصيل الخشوع:

«وطريق تحصيله أن يحضر قلبه الحزن والخوف بتأمل ما فيه من التهديد والوعيد الشديد والمواثيق والعهود ثم ينظر تقصيره في ذلك؛ فإن لم يحضره حزن فليبك على فقد ذلك، وأنه من أعظم المصائب»[٤]. قال مالك بن دينار ـ رحمه الله ـ: «ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب»[٥]؛ ولذلك تعوذ

(١) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء، ٢ / ٦٦١.
(٢) تعظيم قدر الصلاة، ١ / ١٩٩، وقال محققه الفريوائي: رجاله ثقات وإسناده صحيح.
(٣) التحفة العراقية، لشيخ الإسلام، ص ٥٩.
(٤) الإحياء، ١ / ٢٧٨، نقلاً عن التبيان في آداب حملة القرآن، ص ٦٤ ـ بتصرف ـ؛ وانظر: الإتقان، ١ / ١٤١، وعزاه إلى المجموع.
(٥) أخرجه الإمام أحمد في الزهد، ٢ / ٣٠٠؛ وانظر: جامع بيان العلم، ص ٧٠١، رقم ١٢٥٣، قال محققه: إسناده لا بأس به.

النبـي ﷺ منه فـي قوله: «اللهـم! إني أعوذ بك من علـم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»(١).

وأعظم ما يجلب البكاء والخشوع هو صفاء القلب وشدة تعظيمه لله.

وقال ابن عقيل ـ رحمه الله ـ: «أليس بيننا كتاب الله ـ عز وجل ـ وهو كلامه الذي كان النبي ﷺ يتزمّل ويتدثر لنزوله، والجن تنصت لاستماعه، وأمرنا بالتأدب بقوله: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا**﴾ [**الأعراف**: ٢٠٤]، وأنتم معرضون، وربما أصغيتم إلىٰ النغمة استثارة للهوىٰ، فالله الله أن لا ننسىٰ الأدب فيما وجب فيه حسن الأدب»(٢).

تلازم الخشوع والعلم:

قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [**فاطر**: ٢٨]، ومما يوضح ارتباط العلم بالقرآن بخشوع القلب حديث أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ الذي يقول فيه: كنا مع رسول الله ﷺ فشخص بصره إلىٰ السماء ثم قال: «هذا أوان اختلاس العلم من الناس حتىٰ لا يقدروا منه علىٰ شيءٍ»، فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيف يُختلس منا وقد قرأنا القرآن؟ فو الله لَنقرأنّه ولَنُقرئنّه نساءنا وأبناءنا. فقال: «ثكلتك أمك يا زياد! إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة! هذا التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارىٰ؛ فماذا تغني عنهم؟!».

قال جبير بن نفير ـ أحد الرواة ـ: فلقيت عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قلت: «ألا تسمع إلىٰ ما يقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرته بالذي قال أبو الدرداء، قال: صدق أبو الدرداء، إن شئت لأحدثنك بأول علم يرفع من الناس، أول علم يرفع من الناس: الخشوع، يوشك أن تدخل مسجد جماعة

(١) رواه مسلم، رقم ٢٧٢٢؛ وأحمد، ٤ / ٣٧١، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.
(٢) الآداب الشرعية، ٢ / ٣٠٤.

فلا ترىٰ فيه رجلاً خاشعاً»(١).

الدرجة الثالثة: الاستجابة والخضوع:

غاية ومقصد:

يبين الله لعباده أن الغاية من إنزال كتابه اتباعه والاستجابة لأمره والخضوع له، والاستقامة علىٰ نهجه، فيقول ـ سبحانه ـ: ﴿**وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [**الأنعام**: ١٥٥]، ويقول ـ سبحانه ـ: ﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ [**البقرة**: ١٨٧]. وقال ـ سبحانه ـ: ﴿**اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ [**الأعراف**: ٣]، قال القرطبي ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ [**الزمر**: ٢٣]: «أي إلىٰ العمل بكتاب الله والتصديق به»(٢).

ويوضح ابن القيم ـ رحمه الله ـ علاقة الانقياد بالخشوع فيقول: «قيل معنىٰ الخشوع: الانقياد للحق. وهذا من موجبات الخشوع»(٣).

وفي قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ**﴾ [**البقرة**: ١٢١]، يقول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «يتبعونه حق اتباعه»(٤)، وكذا قال عطاء ومجاهد وعكرمة.

ويقول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «والذي نفسي بيده، إن ﴿**حَقَّ تِلاوَتِهِ**﴾: أن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله»(٥). ويقول

---

(١) رواه الترمذي، رقم ٢٦٥٣، وقال: حديث حسن غريب؛ والدارمي، رقم ٢٩٤؛ والطحاوي، ١ / ١٢٤؛ والحاكم، ١ / ٩٩؛ وله شواهد عند ابن ماجه، رقم ٤٠٤٨؛ وأحمد ٤ / ٢١٨؛ والنسائي، ك/ ٢٧، ب/ ٤١؛ وابن حبان ١١٥؛ وحسن إسناده المنذري في (الترغيب والترهيب)، والهيثمي في (المجمع)، انظر: تخريج العودة في كتابه (صفة الغرباء)، ص ٩٨، وقال: والحديث بطرقه حسن. وانظر: تخريج الأرناؤوط (جامع الأصول)، ٨ / ٣٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٥ / ٢٤٩.

(٣) مدارج السالكين، ص ١ / ٥٢١.

(٤) تفسير الطبري، ١ / ٥٦٦.

(٥) وبنحوه قال قتادة رحمه الله، وانظر: تفصيل الروايات في تفسير الطبري، ١ / ٥٦٦.

مجاهد وعطاء رحمهما الله: «يعملون به حق عمله»[١].

(إن القرآن ليس كتاباً للتلاوة ولا للثقافة.. وكفىٰ، إنما هو رصيد من الحيوية الدافعة وإيحاء متجدد في المواقف والحوادث! ونصوصه مهيأة للعمل في كل لحظة متىٰ وُجد القلب الذي يتعاطف معه ويتجاوب، ووُجد الظرف الذي يطلق الطاقة المكنونة في تلك النصوص ذات السر العجيب!)[٢].

(ليس التدبر غاية في ذاته، إنما هو وسيلة لأمر عظيم يراد: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الزمر: ١٧ – ٢٣]، ذلك هو الأمر العظيم المراد: أن يتحول الاستماع إلىٰ القرآن وتلاوته والتأثر الخاشع به إلىٰ «هدىٰ»، إلىٰ سلوك ملتزم بما أنزل الله في الكتاب، بعبارة أخرىٰ يتحول إلىٰ منهج حياة.

إن المسلمين في هذا العصر أحوج الناس إلىٰ تدبر القرآن لهذا القصد الذي استحالت فيه العقيدة وقضية الألوهية إلىٰ كلمة تقال باللسان والقلب غافل عن مقتضياتها.

إن القرآن ليس للإثارة الوجدانية المؤقتة التي تصحب عادة قراءة النص المحكم المؤثر البليغ، كلا إنه دروس تربية وتوجيه لهذه الأمة، تربىٰ عليه الرسول

(١) الطبري، ١ / ٥٦٨؛ والزهد، لابن المبارك، ٢٧٣.
(٢) الظلال، ج ٥، ص ٢٨٣٦.

ﷺ وربى عليه أمته من بعد، فينبغي أن نقرأ القرآن على هذا الأساس: نقرأه ليربينا ليس شعارات ومثل معلقة في الفضاء، وليس قيماً فكرية ولكنه واقع معاش، إنه يحمل التوجيه التربوي الأكبر للمؤمنين.

وما من موضع في القرآن يخلو من هذا التوجيه، فنحن نحتاج تدبر القرآن ليربينا كما ربى الجيل الأول، فتتحول العقيدة من بديهية ذهنية إلى شيء مستقر في القلب، وقوة محركة في واقعنا، وسلوك منبثق منها، فيصبح القرآن منهج حياة في الشعور والفكر والسلوك في كل اتجاه.

وهذا هو الذي ينبغي أن نلتفت إليه التفاتاً شديداً ونحن نقرأ القرآن، لكي لا يفوتنا التدبر المطلوب منا ولا الآثار المطلوبة من هذا التدبر في واقع السلوك وواقع الحياة)[١].

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ [**الأعراف**: ٢٠٤]، قال وهب بن منبه ـ رحمه الله ـ: «من أدب الاستماع سكون الجوارح... والعزم على العمل... يعزم على أن يفهم فيعمل بما فهم»[٢].

شرف العاملين بالقرآن وفضلهم:

ومن أبلغ الشواهد على شرف من يعمل بالقرآن وفضله، ما ثبت عن النواس بن سمعان ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران»، وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: «كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق، أو كأنهما حزقان من طير صواف، تحاجان عن صاحبهما»[٣].

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «فما أحق من عَلم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه،

(١) اقتباس بتصرف من كتاب دراسات قرآنية، للأستاذ محمد قطب، فصل: كيف نقرأ القرآن، ص ٤٨٧.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١١ / ١٧٦.
(٣) رواه مسلم، رقم ٨٠٥؛ والترمذي، رقم ٢٨٨٦.

ويتذكر ما شرح له فيه، ويخشى الله ويتقيه، ويراقبه ويستحييه؛ فإنه قد حمل أعباء الرسل، وصار شهيداً في القيامة على من خالف من أهل الملل»[١] .

وفي حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: «ضمَّني رسول الله ﷺ وقال: «اللهم علِّمه الحكمة»[٢] . قال ابن حجر - رحمه الله -: «المراد بالحكمة هنا قيل: القرآن. وقيل: العمل به»[٣] .

وقد يكون الخضوع والاستجابة لكلام الله، حينما يواجه المؤمن موقفاً فيَتذكر آية، أو يُذَكَّر بها، فيقف عندها، ولا يتعدى حدودها. قال السدي - رحمه الله تعالى - في قوله - عز وجل -: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا**﴾ [**الأنفال**: ٢]: «إذا أراد أن يظلم مظلمة قيل له: اتق الله. كَفَّ ووَجل قلبه»[٤] .

ترك العمل بالقرآن من أعظم الهجر:

قال الله - تعالى -: ﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**﴾ [**الفرقان**: ٣٠].

وحين ذكر ابن القيم - رحمه الله - أنواع هجر القرآن، قال: «الثاني: هجر العمل به، والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به. والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد، وأن أدلته لفظية لا تحصِّل العلم، . . . وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها، وأنه لا يكفي العباد، بل هم محتاجون معه إلى المعقولات والأقيسة، أو الآراء أو السياسات»[٥] . وكيف والله يقول: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [**المائدة**: ٤٤] ؟!

وعن قوله - تعالى -: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا**

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١ / ٢.
(٢) رواه البخاري، رقم ٣٧٥٦.
(٣) الفتح، ١ / ١٧٠.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، ٧ / ٣٦٤.
(٥) الفوائد، ص ١٥٦.

تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، يقول مالك بن مغول ـ رحمه الله ـ: «تركوا العمل به»(١).

وقال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: نزل القرآن ليتدبر ويعمل به فاتخذوا تلاوته عملاً(٢). وتدبر آياته: اتباعه والعمل بعلمه، أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده؛ حتىٰ إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، ما يُرىٰ له القرآن في خلق ولا عمل(٣). ومن أحب أن يعلم ما هو فليعرض نفسه علىٰ القرآن(٤). وإن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار(٥).

ويقول القرطبي ـ رحمه الله ـ: (ومن أتي علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع، وارتكب من الإثم قبيحاً، ومن الجرائم فضوحاً؛ كان القرآن حجة عليه، وخصماً لديه، قال ﷺ: «القرآن حجة لك أو عليك»(٦)) (٧).

هدي السلف علم وعمل:

ولقد كان هذا نهج يسير عليه الصحابة رضي الله عنهم، فهذا التابعي أبو عبد الرحمن السلمي ـ رحمه الله ـ ينقل ذلك عن ثلاثة من كبار الصحابة رضي الله عنهم، فيروي عن عثمان وابن مسعود وأُبيّ بن كعب ـ رضي الله عنهم ـ: «أن رسول الله ﷺ كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلىٰ عشر أخرىٰ حتىٰ يتعلموا ما فيها من العمل، [قالوا:] فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً»(٨).

---

(١) جامع بيان العلم، ص ٧٠٨، رقم ١٢٨١.
(٢) مدارج السالكين، ١/ ٤٥١؛ ونحوه في تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ص ١٠٩، ونقل عن الفضيل بن عياض، انظر: اقتضاء العلم العمل، ص ٧٦.
(٣) أخلاق حملة القرآن، للآجري، ص ٥٠، والزهد، لابن المبارك، ص ٢٧٤؛ وكتاب البدع والحوادث، ٩٩؛ وابن نصر في (قيام الليل)، ص ٧٢؛ والفريابي في (فضائل القرآن)، رقم ١٧٧.
(٤) أخلاق حملة القرآن، للآجري، ٢٠؛ والزهد، لابن المبارك، ص ١٣.
(٥) التبيان، النووي، ٤٢.
(٦) رواه مسلم، رقم ٢٢٣؛ وأحمد، ٥/ ٣٤٢، ٣٤٣؛ والدارمي، ١/ ١٦٧؛ والترمذي، رقم ٣٥١٧؛ وابن ماجه، رقم ٢٨٠؛ والبيهقي، ١/ ٤٢؛ وابن حبان، ٨٤٤.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، ١/ ٢.
(٨) الجامع لأحكام القرآن، ١/ ٣٩، وعزاه إلىٰ كتاب أبي عمرو الداني (البيان)، والطبري، ١/ ٦٠، ٨٢.

إن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ (لم يكونوا يقرؤون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع، ولا بقصد التذوق والمتاع، لم يكم أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولاً يملأ به جعبته، إنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها، وشأن الحياة التي يحياها هو وجماعته، يتلقى الأمر ليعمل به فور سماعه، كما يتلقى الجندي في الميدان الأمر اليومي ليعمل به فور تلقيه. . . إن هذا القرآن لم يجئ ليكون كتاب متاع عقلي، ولا كتاب أدب وفن، ولا كتاب قصة وتاريخ، وإن كان هذا كله من محتوياته إنما جاء ليكون منهاج حياة)(١).

محاسبة النفس على العمل بالقرآن:

ويبين ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ الطريق إلى ذلك فيقول: «التفكر في الخير يدعو إلى العمل به»(٢).

وقال سفيان ـ رحمه الله ـ: «ليس في كتاب الله آية أشد عليّ من قوله ـ تعالى ـ: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ**﴾ [**المائدة**: ٦٨]، وإقامتها: فهمها والعمل بها»(٣).

وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: «أخوف ما أخاف أن يُقال لي يوم القيامة: يا عويمر، أعلمت أم جهلت؟ فإن قلت: علمت. لا تبقى آية آمرة أو زاجرة إلا أخذت بفريضتها: الآمرة هل ائتمرت؟ والزاجرة هل ازدجرت؟ وأعوذ بالله من علم لا ينفع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يسمع»(٤).

(١) معالم في الطريق، ١٤، ١٥.
(٢) مفتاح دار السعادة، ص ٢١٥.
(٣) كتاب البدع والحوادث، ص ١٠١.
(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في (زوائد الزهد)، ٢/ ٦٥؛ وعنه أبو نعيم في الحلية، ١/ ٢١٣، وروى أوله الدارمي في سننه (١/ ٨٢)، وجامع بيان العلم ١٢٠١، ١٢٠٤، والخطيب البغدادي في (اقتضاءُ العلم العمل)، وفي الكتاب جملٌ مفيدة حول العمل بالعلم، وانظر: حياة الصحابة، ٣/ ٢٤٣.

ويفيض الآجري ـ رحمة الله عليه ـ في توضيح خضوع القلب لكلام الله، وكيف تكون الاستجابة لداعي الله؟ وكيف يحاسب القارئ نفسه وكيف يسألها سؤال المشفق الخاضع الذليل؟ فيقول عن قارئ القرآن: «يتصفح القرآن ليؤدب به نفسه، همَّته متى أستغني بالله عن غيره؟ متى أكون من المتقين؟ متى أكون من الخاشعين؟ متى أكون من الصابرين؟ متى أكون من الصادقين؟ متى أكون من الخائفين؟ متى أكون من الراجين؟ متى أزهد في الدنيا؟ متى أرغب في الآخرة؟ متى أتوب من الذنوب؟ متى أعرف النعم المتواترة؟ متى أشكره عليها؟ متى أعقل عن الله الخطاب؟ متى أفقه ما أتلو؟ متى أغلب نفسي على ما تهوى؟ متى أجاهد في الله حق جهاده؟ متى أحفظ لساني؟ متى أغض طرفي؟ متى أحفظ فرجي؟ متى أستحي من الله حق الحياء؟ متى أشتغل بعيبي؟ متى أصلح ما فسد من أمري؟ متى أحاسب نفسي؟ متى أتزود ليوم معادي؟ متى أكون عن الله راضياً؟ متى أكون بالله واثقاً؟ متى أكون بزجر القرآن متعظاً؟ متى أكون بذكره عن ذكر غيره مشتغلاً؟ متى أُحِب ما أحَب؟ متى أُبغِض ما أبغَض؟ متى أنصح لله؟ متى أخلص له عملي؟ متى أقصر أملي؟ متى أتأهب ليوم موتي وقد غيب عني أجلي؟ متى أعمّر قبري؟ متى أفكر في الموت وشدته؟ متى أفكر في خلوتي مع ربي؟ متى أفكر في المنقلب؟ متى أحذر مما حذرني منه ربي؟ متى. . . »(١).

وقال ابن مفلح ـ رحمه الله ـ في حال من يقرأ القرآن ـ: «ينبغي أن يكون ذا سكينة ووقار، يُعرف القرآن في سمته وخلقه، . . . ما أخوفني أن يكون المصحف في بيتك وأنت مرتكب لنواهي الحق ـ سبحانه ـ فتدخل تحت قوله: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [**آل عمران**: ١٨٧]، فهجران الأوائل كلام الحق يوجب ما أوجب عليهم من الإبعاد والمقت . . . فالله الله! في إهمال ما وجب لله ـ تعالى ـ من الأدب عند تلاوة القرآن، والإنصات للفهم والنهضة للعمل بالحكم إيفاءً

(١) أخلاق حملة القرآن، ص ٤٠.

للحقوق إذا وجبت، وصبراً على أثقال التكاليف إذا حضرت، وتلقياً بالتسليم للمصائب إذا نزلت، وحشمة للحق في كل أخذ وترك؛ حيث نبهك على سبب الحشمة فقال: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، ثكلت نفسي حين أسمع القرآن ولا أخشع، وأسمع كلام الطرقيين فيظهر مني الانزعاج . . . وللحق ثقلٌ فلا يغرنكم تحرك الطباع بالأسجاع والألحان . . . ترى بماذا تحدث عنك سواري المسجد في الظلم . . . من خوف الوعيد والتذكر للآخرة بنظر العبرة، إذا تحدثت عن أقوام ختموا في بيوتهم الختمات وصانوا الأهل اتباعاً للنبي ﷺ؛ حيث انسل من فراش عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلى المسجد لا شموع، ولا جموع، طوبى لمن سمع هذا الحديث، فانزوى إلى زاوية بيته، وانتصب لقراءة جزء في ركعتين بتدبُّر وتفكر، فيا لها من لحظةٍ ما أصفاها من كدر المخالطات، وأقذار الرياء»(١).

وقال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: «إن المؤمن يفجأ الشيء يعجبه فيقول: والله! إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات هيهات، حيل بيني وبينك. ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه، فيقول: ما أردت إلى هذا، والله! لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله. إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه، في بصره، في لسانه، في جوارحه»(٢).

الدرجة الرابعة: استخراج الحِكَم واستنباط الأحكام:

مكانة هذه الدرجة:

١ ـ أنها من لوازم العلم:

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «فالواجب على العلماء الكشف عن معاني

(١) الآداب الشرعية، ٢/ ٣٠١ـ٣١٠.
(٢) الزهد، لابن المبارك، ١٠٣.

كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلُّم ذلك وتعليمه، كما قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] . . . فذم الله ـ تعالىٰ ـ أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله . . . فعلينا ـ أيها المسلمون ـ أن ننتهي عما ذمهم الله ـ تعالىٰ ـ به، وأن نأتمر بما أمرنا الله من تعلُّم كتاب الله المنزل إلينا، وتعليمه وتفهُّمه وتفهيمه»(١).

٢ ـ أنها تدل علىٰ كمال القلب ونور البصيرة.

٣ ـ أنها تثمر في القلب حقائق الإيمان.

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «التذكر والتفكر منزلتان يثمران أنواع المعارف وحقائق الإيمان والإحسان، والعارف لا يزال يعود بتذكُّره علىٰ تفكُّره؛ حتىٰ يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم، . . . واعلم أن الرجل قد يكون له قلب وقَّاد مليء باستخراج العبر واستنباط الحكم، فهذا قلبه يوقعه علىٰ التذكر والاعتبار؛ فإذا سمع الآيات كانت له نور علىٰ نور، وهؤلاء أكمل خلق الله وأعظمهم إيماناً وبصيرة»(٢)، وهو من كمال الإيمان ومحض العرفان(٣).

شروط الاستنباط واستخراج الأحكام:

١ ـ سلامة المقصد عند بيان الأحكام.

٢ ـ معرفة مواطن الاستنباط والنظر.

٣ ـ إتقان العلوم المؤهِّلة للاستنباط.

٤ ـ الاعتماد علىٰ الحجة.

(١) تفسير القرآن العظيم، ١ / ٨.
(٢) مدارج السالكين، ١ / ٤٤١ ـ ٤٤٣.
(٣) الإتقان، ٢ / ٢٣٤.

٥ ـ مراعاة مقاصد الشريعة وغاية القرآن .

بين التفسير والتأويل :

قال الثعلبي : التفسير : بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً ، كتفسير الصراط بالطريق ، والصيِّب بالمطر . والتأويل : تفسير باطن اللفظ مأخوذ من الأول ، وهو الرجوع لعاقبة الأمر ، مثاله قوله ـ تعالىٰ ـ : ﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**﴾ [**الفجر** : ١٤] تفسيره : من الرصد ، يقال : رصدته : رقبته . المرصاد مفعال منه ، وتأويله : التحذير من التهاون بأمر الله ، والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه .

وقال الأصبهاني : اعلم أن التفسير في عُرف العلماء : كشف معاني القرآن . وبيان المراد : أعم من أن يكون بحسب اللفظ المشكل وغيره ، وبحسب المعنىٰ الظاهر . والتأويل أكثره في الجمل .

وقيل : التفسير يتعلق بالرواية ، والتأويل يتعلق بالدراية .

وقيل : ما وقع مبيناً في كتاب الله ، ومعيناً في صحيح السنَّة ، سمّي تفسيراً لأن معناه قد ظهر ووضح ، وليس لأحد أن يتعرض إليه باجتهاد ولا غيره ، بل يحمله علىٰ المعنىٰ الذي ورد لا يتعداه . والتأويل : ما استنبطه العلماء العاملون لمعنىٰ الخطاب ، الماهرون في آلات العلوم .

وقال البغوي والكواشي : التأويل صرف الآية إلىٰ معنىٰ موافق لما قبلها وما بعدها تحتمله الآية ، غير مخالف للكتاب والسنَّة ، من طريق الاستنباط(١) .

الطريق إلى استنباط الحِكَم واستخراج الأحكام(٢) :

يقول الشاطبي ـ رحمه الله ـ : «الاعتبار بالقرآن قلَّما يجيده إلا من كان من

(١) انظر الأقوال السابقة في : الإتقان ، ٢ / ٢٢١ .

(٢) ولبيان طرق التفسير انظر : (مقدمة في أصول التفسير) ، لشيخ الإسلام ، وهي ضمن الفتاوىٰ ، ١٣ / ٣٦٣ ؛ و(تفسير القرطبي) ، ١ / ٣٣ ؛ و(تفسير الطبري) ، ١/ ٧٣ ، ٩٢ ؛ و (التبيان) ، للنووي ، ص ١١٥ ؛ و (البرهان) ، للزركشي ، ٢ / ١٦٤ ؛ و (الإتقان) ، للسيوطي ، ٢ / ٣٠٩ ، ومقدمة (تفسير ابن كثير) ، ص ١٣ ؛ و(جامع الأصول) ، ٢ / ٤ .

أهله عملاً به، فلا يخرجون عند الاعتبار فيه عن حدوده، كما لم يخرجوا في العمل به والتخلُّق بأخلاقه عن حدوده، بل تنفتح لهم أبواب الفهم فيه على توازي أحكامه»(١).

قال السيوطي: «الطريق في تحصيله: ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل والزهد»(٢).

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكرة»(٣).

وعن استنباط الحِكَم والإشارات واللطائف، والدلائل التي لم يعرج في اللفظ على ذكرها، يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وأنت إذا تأملت الآية حقها، ودلالة اللفظ، وإماءته وإشارته وتنبيهه، وقياس الشيء على نظيره، واعتباره بمُشاكله، وتأملت المشابهة التي عقدها الله وربطها بين الظاهر والباطن، فهمت هذه المعاني كلها، وبالله التوفيق»(٤).

ويقول السعدي ـ رحمه الله ـ: «إذا فهمت ما دلَّت عليه الآيات الكريمات من المعاني مطابقة وتضمناً، فاعلم أن لوازم هذه المعاني(٥)، وما لا تتم إلا به، وشروطها وتوابعها تابع للحكم؛ فما لا يتم الخبر إلا به فهو تابع للخبر، وما لا يتم الحكم إلا به فهو تابع للحكم. وأن حذف المتعلقات من مفعولات وغيرها يدل على تعميم المعنى لأن هذا من أعظم فوائد الحذف، وأنه لا يجوز حذف ما لا

---

(١) الموافقات: ٣/ ٨٤٩.
(٢) الإتقان، ٢/ ٢٣١.
(٣) مفتاح دار السعادة، ص ٢١٥.
(٤) التبيان في أقسام القرآن، ص ١٤٥.
(٥) دلالة اللفظ تنقسم عند الأصوليين إلى ثلاث أقسام: دلالة المطابقة، ودلالة التضمين، ودلالة الالتزام. ومبحث الكناية في علم البلاغة مبني على دلالة الالتزام، انظر: إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر، ١/ ٢١٣، للنملة، والإتقان للسيوطي، ٢/ ٦١، النوع الرابع والخمسون: (في كنايته وتعريضه)؛ ومقدمة (أحكام من القرآن الكريم)، لابن عثيمين ـ رحمه الله ـ.

يدل عليه السياق اللفظي والقرينة الحالية[١]. وهذه قاعدة من أجلّ قواعد التفسير وأنفعها، وتستدعي قوة فكر وحسن تدبر وصحة قصد؛ فإن الذي أنزله للهدىٰ والرحمة هو العالم بكل شيء الذي أحاط علمه بما تكن الصدور، وبما تضمنه القرآن من المعاني، وما يتبعها وما يتقدمها وتتوقف هي عليه؛ ولهذا أجمع العلماء علىٰ الاستدلال باللوازم في كلام الله لهذا السبب.

وأكثِر من هذا، وداوم عليه حتىٰ يصير لك ملكة جيدة في الغوص علىٰ المعاني الدقيقة؛ فإن القرآن حق، ولازم الحق حق، وما يتوقف علىٰ الحق حق، وما يتفرع من الحق حق، وذلك حق ولا بد؛ فمن وفق لهذه الطريقة وأعطاه الله توفيقاً ونوراً[٢]، انفتحت له في القرآن العلوم النافعة، والمعارف الجلية، والأخلاق السامية، والآداب الكريمة العالية»[٣].

ومن أساليب الاستنباط: اعتبار القارئ بما هو أولىٰ به وأحرىٰ بحاله، كما في مثل قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**﴾ [**الجمعة**: ٥]؛ فإن هذا تشبيه لقوم مضوا، لكنه تحذير وتنبيه لكل قارئ للقرآن، ولذلك يقول القرطبي ـ رحمه الله ـ: «وفي هذا تنبيه من الله ـ تعالىٰ ـ لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه؛ لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء»[٤]. وهذا يجري في كل عيب ونقص توصف به الأمم الظالمة وأعيان الخاسرين.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ١٥، وقد فصل في مسألة الحذف الميداني في كتابه (قواعد التدبر) في القاعدة العاشرة: (حول البحث عن المحاذيف للإيجاز)، ص ٦٩، وأحال علىٰ كتاب العز بن عبد السلام: (الإشارة إلىٰ الإيجاز في بعض أنواع المجاز)، الباب الأول.

(٢) وممن اشتهر بهذا ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مواطن كثيرة في كتبه، منها (التبيان في أقسام القرآن)، و (بدائع التفسير)، و(مفتاح دار السعادة)، و (طريق الهجرتين)، و (مدارج السالكين)، وقد تميز ـ رحمه الله ـ بإتقانه للأصول، فمثله حري أن يوفق للصواب، ولا يكون قصوره إلا قصور المجتهد المأجور، ثم إنه يصنف الأقوال المأثورة، ويربط بينها، ويستنبط منها، وكذلك فإنه يعود باستنباطاته إلىٰ ما ينور بصيرة العقل، ويصلح القلب ويهديه، ويشفيه من أمراض الشبهات والشهوات.

(٣) انظر: (القواعد الحسان لتفسير القرآن)، القاعدة الحادية عشرة، ص ٢٨، وذكر لهذه القاعدة عدة أمثلة، وانظر تفسيره للآية ٧ من سورة غافر، ص ٧٣٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٨/ ٩٤.

وكذلك في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ**﴾ [**غافر**: ٥٥]؛ فإنها وإن كانت خطاباً للنبي ﷺ، فإنَّ فحوىٰ الخطاب لغيره أحرىٰ وأولىٰ، ولذلك قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية: «هذا تهييج للأمة علىٰ الاستغفار»(١).

ومثل ذلك ما قاله بعض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ عن سورة النصر حيث قالوا: «أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا»(٢)، والخطاب في السورة للنبي ﷺ ومع ذلك فهموا أن الأمر لعامة الأمة.

ومن ميادين الاستنباط: معرفة موضوع السورة، كما قال ابن عباس عن سورة النصر: «أنها نعيت إلىٰ رسول الله ﷺ نفسه»(٣). قال ابن حجر ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: «وفيه جواز تأويل القرآن بما يفهم من الإشارات. وإنما يتمكن من ذلك من رسخت قدمه في العلم؛ ولهذا قال علي ـ رضي الله تعالىٰ عنه ـ: أو فهماً يؤتيه الله رجلاً في القرآن»(٤).

ومن ميادين الاستنباط: النظر في المناسبة بين الألفاظ في الآية، والنظر في المناسبة بين الآيات في السورة.

قال الزركشي ـ رحمه الله ـ: «المناسبات علم شريف تحرز به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول»(٥).

ومما يدخل في الاستنباط: النظر في أسرار التشابه، والاختلاف بين ألفاظ الآيات(٦).

---

(١) تفسير ابن كثير، ٤/ ٨٦.
(٢) رواه البخاري، رقم ٤٩٧٠، والترمذي، رقم ٣٣٥٩، وسيأتي ذكر أقوالهم عن السورة، ص ١٤٧، ١٥٠.
(٣) رواه البخاري، رقم ٤٩٦٩؛ ومسلم، رقم ٤٩٧٠.
(٤) الفتح، ٨/ ٧٣٦.
(٥) البرهان في علوم القرآن، النوع الثاني: معرفة المناسبات بين الآيات، ١/ ٦١. وينظر النوع الثاني والستون: في مناسبة الآيات والسور، من كتاب الإتقان للسيوطي، ٢/ ١٣٨، وسيأتي، ص ١٥٠ ذكر مثالين علىٰ ذلك.
(٦) ينظر في ذلك: النوع الثالث والستون: في الآيات المشتبهات، من كتاب الإتقان، للسيوطي، ٢/ ١٤٦، والنوع الخامس: علم المتشابه، من كتاب البرهان، للزركشي، ١/ ١٤٥.